الآداب
المجلد: 23، العـدد: 01، ديسمبر 2023
الصفحات: 134 – 155
ISSN 1111 –4908 EISSN 2588 –2228

جهود البلاغيين والعلماء العرب القدماء في البلاغة العربية
–الإمام عبد القاهر الجرجاني أنموذجا–

The Efforts of Ancient Arab Rhetoricians and Scholars in Arabic Rhetoric
Case study: Al-Imam Abdul Qahir al-Jurjani

د. عبد الحميد كحيحة[1]

[1]جامعة قسنطينة–1 الاخوة منتوري –(الجزائر)، kehihahamid@gmail.com

تاريخ الإرسال:2023/07/12 **تاريخ القبول:**2023/12/03 **تاريخ النشر:**2023/12/15

ملخص:

يعدّ هذا المقال، دراسة لأهم الأعمال الجليلة التي قام بها العلماء والبلاغيون العرب القدماء في مجال التراث البلاغي، وما قدّموه من جهود علمية في سبيل البحث في إعجاز القرآن الكريم وبيانه، حيث تعرّضتُ في هذا المقال لجهود بعض البلاغيين والنقاد فقط نظرا لكثرتهم، وإبراز أهم الجهود التي قام بها الإمام عبد القاهر الجرجاني في مجال البلاغة العربية. وإنّ هدف هذه الدراسة، هو إبراز تلك الجهود والاجتهادات في مجال البلاغة العربية؛ نظرا لأهميتها في معرفة أسرار وإعجاز القرآن الكريم، وتيسير تعليمها للمبتدئين والمتعلمين.

كلمات مفتاحية: *البلاغة العربية؛ البلاغيون القدماء؛ جهود البلاغيين؛ إعجاز القرآن الكريم؛ جهود عبد القاهر الجرجاني.*

Abstract:

This article studies the most important great works of ancient Arab scholars and rhetoricians in rhetorical heritage and their scientific efforts to research the miracles of the Noble Qur'an and its statement. This article deals with the efforts of some rhetoricians and critics. It highlights the most essential efforts made by Imam Abdul Qahir al-Jurjani in Arabic rhetoric. This study aims to highlight those efforts and interpretations in Arabic rhetoric because of its importance in knowing the secrets and miracles of the Noble Qur'an and facilitating its teaching for beginners and learners.

Keywords: *Arabic rhetoric; ancient rhetoricians; rhetoricians' efforts; the miracles of the Noble Qur'an; the efforts of Abdul Qahir al-Jurjani.*

المؤلف المراسل: عبد الحميد كحيحة

مقدمة:

اشتهر العرب قبل نزول القرآن الكريم على النبيّ محمد صلى الله عليه وسلّم، بفصاحة اللّسان وبلاغة القول، فكانوا حجّة في البيان، وبرعوا وأبدعوا في ذلك أيّما إبداع، ومع نزول القرآن الكريم على محمد صلى عليه وسلم، بُهر العرب بما فيه من كلام معجز، فرموا نبي الله بالسّاحر تارة والكاهن والمجنون تارة أخرى؛ لأنّ القرآن الكريم جاء إعجازا لكلامهم، لما فيه من طلاوة وحلاوة، وسحر وبيان ومعان وبلاغة؛ أفحمت أساطين البيان وجهابذة البلاغة من العرب.

واللّغة العربيّة الفصيحة، ارتبطت بالقرآن الكريم الذي نزل بها، وهذا ما زادها شرفا وعلوا ومكانة لدى الباحثين والدّارسين من النقاد والنحاة والبلاغيين والمفسرين.

ومن علوم هذه اللّغة **البلاغة**، التي اتّجه إليها عدد لا بأس به من العلماء الأوائل؛ قصد البحث في سرّ إعجاز القرآن الكريم، ومحاولة الوصول إلى فهم معانيه وإعجازه، ثم إلى تقنينها وتقعيدها وتبويبها؛ قصد تعليمها وتعلّمها إلى الناشئة من المتعلّمين، والأعاجم الذين لم يلحقوا بالعرب الأقحاح في الفصاحة والبلاغة.

ومما لاشكّ فيه أنّ البحوث والدراسات اللّغوية العربيّة القديمة، اهتمت بمجال البحث في الدرس البلاغي، وأعطته العناية الفائقة لما له من أهميّة بالغة في معرفة مجاز القرآن الكريم وإعجازه.

وإذا كان هذا ما يطمح إليه العلماء والبلاغيون القدماء، فما هي الجهود البلاغية التي قاموا بها للبحث عن سرّ إعجازه؟

وللإجابة على هذا السؤال رأينا تقسيم هذا المقال إلى ثلاثة عناصر هي: ـ مفهوم البلاغة العربية لغة واصطلاحا عند بعض الباحثين القدماء.

ـ إظهار جهود بعض البلاغيين العرب القدماء في البلاغة العربية، للبحث في مجاز القرآن الكريم وإسهاماتهم في إرساء قواعد وضوابط لهذا العلم؛ حتى يسهل على المبتدئ والمتعلم تعلمه.

ـ جهود الإمام عبد القاهر الجرجاني وإسهاماته في البلاغة العربية.

1. مفهوم البلاغة العربية عند البلاغيين العرب القدماء:

ولا بأس أنْ أقدم هنا تعريف البلاغة العربية لغة

1.1. مفهوم البلاغة لغة:

لقد ورد في لسان العرب لابن منظور في مادة بَلَغَ "بلغ الشيء يبلغ بلوغا وبلاغا، وصل وانتهى وأبلغه هو إبلاغا وتبليغا... وتبلّغ بالشيء وصل إلى مراده، وبلغ مبلغ فلان ومبلغته والبلاغ: ما يتبلّغ به ويتوصّل إلى الشيء المطلوب، والبلاغ ما بلغك والبلاغ الكفاية.. وبلغت المكان بلوغا وصلت إليه، وكذلك إذا شارفت عليه ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[1] أي قاربنه...والبلاغة: الفصاحة والبلغ والبلغ من الرجال، ورجل بليغ وبلغ حسن الكلام، فصيحه يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه، والجمع بلغاء، وقد بلغُ بالضم أي صار بليغا، وقول بليغ، بالغ وقد بلغ..."[2].

نستنتج من التعريف اللغوي للبلاغة لابن منظور أن دلالتها اللغوية تتمحور حول الوصول إلى الشيء، أو مقاربة الوصول، والانتهاء إلى الشيء والإفضاء إليه، وعبارة: حسن الكلام، مرتبطة بمعنى الوصول والانتهاء، وهي غاية المتكلم الذي يريد إيصال ما في قلبه إلى المتلقي بعبارة لسانه الحسنة العذبة المشرقة الواضحة، كما أنها تعني الفصاحة، هذا عن التعريف اللغوي للبلاغة العربية.

2.1. أمّا في الاصطلاح: فلقد عرفها مجموعة من البلاغيين والنقاد والباحثين القدماء منهم:

ورد في كتاب البيان والتبيين للجاحظ تعريفات لبعض الشعراء والكتاب القدماء حينما سئلوا عن مفهوم البلاغة ومن هذه التعريفات أذكر ما يلي:

ابن المقفع (ت143هـ) حيث يرى أن البلاغة:"اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابا، ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون شعرا، ومنها ما يكون سجعا

وخطبا، ومنها ما يكون رسائل، فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها، والإشارة إلى المعنى، والإيجاز هو البلاغة"[3].

ما يستنتج من هذا التعريف، هو أن ابن المقفع قدّم لنا صفات البلاغة المتمثلة في الإيجاز ومراعاة المقام، لكن السؤال الذي يطرح هنا، بأيّ معيار نستطيع قياس بلاغة السكوت التي تحدث عنها ابن المقفع؟ فإذا كان يقصد بذلك السكوت في حالات معينة كالفرح والحزن والاضطراب والغضب وغيرها فالصمت فيها أبلغ أحيانا من الكلام؛ لأنها مواقف وجدانية مؤثرة، أما إذا كان السكوت ناتج عن العجز في إبلاغ الرسالة إلى المتلقي فهل يصح أن تكون هذه بلاغة؟ نعتقد أن هذا عجز وليست بلاغة.

أمّا الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) فقد عقد في كتابه دلائل الإعجاز فصلا بعنوان: "في تحقيق القول على البلاغة والفصاحة، والبيان والبراعة، وكلّ ما شاكل ذلك" بيّن فيه أنّ: "لا معنى لهذه العبارات وسائر ما يجري مجراها ممّا يفرد فيه اللفظ بالنعت والصفة، وينسب فيه الفضل والمزيّة إليه دون المعنى غير وصف الكلام بحسن الدلالة، وتمامها فيما له كانت دلالة، ثم تبرّجها في صورة هي أبهى وأزين، وأنق وأعجب، وأحق بأن تستولي على هوى النفوس، وتنال الحظ الأوفر من ميل القلوب، وأولى بأن تطلق لسان الجامد، وتطيل رغم الحاسد، ولا جهة لاستعمال هذه الخصال غير أنْ يُؤتى المعنى من الجهة التي هي أصحّ لتأديته، ويختار له اللّفظ الذي هو أخصّ به، وأكشف عنه، وأتمّ له، وأحرى بأنْ يكسبه نبلا، ويظهر مزيّة"[4].

إنّ هذا المفهوم الذي قدّمه الجرجاني يعدّ صفات مشتركة لكلّ من البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة، وبذلك فهو يقدّم حداً للبلاغة، "فالكلام يجب أن يكون شديد الدّلالة على المعنى، ثمّ إنّه من المستحسن أنْ يرصف في جملة أنيقة متبرّجة لتأتي فائقة الأناقة تبلغ الأسماع فتطربها بجرسها، وتأسرها بجمال وسحر ألفاظها، ولتأتي العبارة بهذه الصفات على صاحبها، أنْ يتخيّر اللّفظ الذي يؤدي المعنى ولا يقصّر عنه؛ لأنّ الكلام الذي تقصر فيه الألفاظ عن تأدية المعاني كاملة وبدقة متناهية ليس كلاما بليغا"[5] وما يُلاحظ على تعريف الجرجاني أنّه حديث عن صفات النظم الحسن وليس تعريفا للبلاغة.

و–فيما نرى– فإنّ البلاغة: هي جعلُ لكلّ مقام مقالا أثناء الكلام نطقًا وكتابة، فلا نُكلّم العامّة بكلام الخاصّة ولا المتعلّم بكلام الأميّ ولا المتخصّص بكلام المبتدئ، ويكون ذلك بألفاظ فصيحة عذبة بعيدة عن الغرابة والتنافر في الحروف، مع الإيجاز الذي لا يخلّ بالمعنى المراد إيصاله إلى نفس المتلقي.

2. جهود العلماء والبلاغيين العرب القدماء في التراث البلاغي:

يُجمع أغلبُ الدارسين والنقاد، على أنّ نشأة علم البلاغة امتزجتْ بالأدب والنّقد والدراسات القرآنية، وإذا أردنا البحث عن أسباب نشأة هذا العلم نجد أنّ "امتزاج العرب بالشعوب المغلوبة، وظهور هذا الامتزاج في الألسنة والطباع، ليس من شكّ في أنّ هذا كلّه كان الباعث في تدوين أصول لتكون ميزانا سليما توزن به بلاغة الكلام؛ لتعصم هذه الأصول الأدباء والمتأدبين من الخطإ في الأسلوب والبيان.. ويضاف إلى ذلك عامل آخر بعيد الأثر في تدوين البلاغة، هو الرّغبة في فهم أسرار إعجاز القرآن الكريم وإقامة أدلّة علميّة على هذا الإعجاز"[6].

وواضحٌ من خلال هذا الرّأي أنّ الباعث الأوّل: لوضع أصول وقواعد ومقاييس لهذا العلم إنّما كان باعثا تعليميا، فبعد اختلاط العرب بالأعاجم الذين لا علم لهم بخبايا وأسرار اللغة العربية بيانا وأسلوبا وجمالا دبّ اللحن والخطأ في ألسنة هؤلاء، وأثّر هذا بدوره على ألسنة العرب، واستفحل هذا الأمر، فقام الغيورون على جمال وبيان هذه اللّغة بوضع هذه الأصول.

أمّا الباعث الثاني: فهو الرغبة في فهم أسرار القرآن الكريم المعجز لكلام العرب ولغيرهم، فما ألفوا قبله عذوبة ولا طلاوة ولا جمالا ولا بيانا.

أمّا الباعث الثالث: فهو الباعث النقدي، والذي كان الغرض منه، تمييز جيّد الكلام من رديئه.

ومن هنا بدأت محاولات الأدباء والنقّاد والكتّاب في القرن الثاني الهجري لفهم "أسرار البيان ووضع أصول مُوجزة تحدّد آرائهم في جمال الأسلوب، واشترك في النهوض بهذا العبء منذ العصر الأمويّ كثيرون في مقدمتهم: أئمة الشّعر والخطابة وفحول الكتّاب والرّواة وعلماء الأدباء من بصريين وكوفيين وبغداديين، ورجال النّقد الذين جمع الكثير منهم مع الثقافة العربية ثقافات أخرى، ونشأت من ذلك آراء كثيرة في البيان وتحديده"[7].

ولقد كانت جهود العلماء القدماء في التراث البلاغيّ جليّة، ولا بأس أنْ أورد في هذا المقام جهودَ بعض منهم في هذا العلم للتوضيح.

1.2. أبو عبيده معمر بن المثنى (ت 210هـ):

يُعدّ الإمام أبو عبيده معمر بن المثنى، من العلماء الأوائل الذين بحثوا وكتبوا أشياء تتعلّق بالبلاغة العربيّة ففي كتابه "مجاز القرآن" الذي ذكر فيه "الكثير من آيات القرآن الكريم، وحلّل بلاغتها، ودافع دفاع العالم الحجّة المجيد"[8]، وما يلفت الانتباه في عمل هذا العالم الجليل هو مفهومه للمجاز، والذي لم يقصد به "المعنى البلاغي الذي عرفه علماء البلاغة فيما بعد، وهو استعمال اللّفظ أو التّركيب في غير المعنى الذي وضعته له العرب لعلاقة مع قرينه مانعة من إرادة المعنى الأصلي في المجاز اللغوي، أو إسناد الشيء إلى ما ليس حقّه أنْ يُسند إليه في المجاز العقلي، فقد أطلق أبو عبيدة لفظة المجاز، وأراد بها معناها الواسع الذي عرّفه من الوضع اللّغوي وهو المعبر والممر والطريق، فمعنى "مجاز القرآن" طريق الوصول إلى المعاني القرآنية، ويستوي عنده أن يكون ذلك تفسير الكلمات اللّغوية التي تحتاج إلى تفسير بالجملة الشارحة، أو بالمرادف المفسّر من المفردات، وما كان عن طريق الحقيقة بمعناها، أو طريق المجاز بمعناه عند البلاغيين"[9].

إنّ العمل الذي قام به أبو عبيدة حول مفهومه للمجاز في حدّ ذاته عمل جليل يدلّ على تطوّر الفكر العربي في البحث حول بيان القرآن الكريم وسحره، والحقيقة أنّه لم يكنْ يترقب من أبي عبيدة أكثر من هذا، فإنّ التّحديد الجامع المانع لمفهوم المجاز لم يكن ممكنا في عصر أبي عبيدة فقد مرّ مفهوم المجاز بمراحل النشأة والتطور والاستقرار...[10]

2.2. جهود الإمام عبد القاهر بن عبد الرحمان بن محمد الجرجاني النحوي (ت471هـ) وكتابيه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز:

لقد ألف عبد القاهر الجرجاني مؤلفات عديدة منها العوامل المائة في النحو، الشافية في إعجاز القرآن الكريم، لكنه اشتهر بكتابيه "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز" مستفيدا مما درسه عن سابقيه من العلماء، فأبرز وبيّن فيهما مسائل البلاغة وأسسها معتمدا الشرح والتحليل والإكثار من الأمثلة والشواهد.

ويعدّ عبد القاهر الجرجاني من العلماء الذين تفطّنوا إلى فكرة الاختصاص والابتعاد عن التعميم غير العلمي، والاهتمام بمعالجة التفاصيل الدقيقة في العلوم، ويمكن اعتبار عصره مرحلة النضج والرشد الفكري في التأليف البلاغي... فقد أودع – الدلائل– أصول نظرية في النظم، بينما انشغل في كتابه الآخر بالحديث عن موضوعات البيان كالاستعارة والمجاز وإليها"[11].

وللإشارة هنا ينبغي أن أذكر أن تقسيم البلاغة إلى علوم ثلاثة: علم المعاني، علم البيان وعلم البديع، لم يكن على يد عبد القاهر الجرجاني، بل لم يتم ذلك إلا في عهد السكاكي. "أما عبد القاهر وسابقوه فقد كانت البلاغة عندهم علما واحدًا يتناول مسائل البديع، وفنونه"[12].

وبالعودة إلى الكتابين نجد كلمة البيان ترد مقرونة بكلمة الفصاحة والبلاغة والبديع، ونجده يورد الاستعارة والتشبيه والمجاز، وفي "دلائل الإعجاز" مبرزا أثرهم في النظم والصياغة وبناء الجمل، وأغلب الظن أن "عبد القاهر الجرجاني" قد ألف كتاب "دلائل الإعجاز" بعد تأليفه "أسرار البلاغة"، إذ كثيرًا ما يعدّ في الأسرار باستيفاء موضوعات، فإذا فتّشت عنها لتحقق ذلك الوعد وجدتها في الدلائل[13].

ومن هذا المنطلق ينبغي ذكر بعض ما جاء في كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز، من أسس ومسائل بلاغية ومدى إفادة عبد القاهر الجرجاني من سابقيه من العلماء وكيف أبرز هذه المسائل بالشرح والتحليل والإكثار من الشواهد[14]؛ نظرا لطبيعة موضوع هذا المقال بغية الإيجاز دون التطويل.

– أسرار البلاغة:

يتحدث الجرجاني في كتابه أسرار البلاغة عن الغرض من تأليفه لهذا الكتاب يقول: "واعلم أنّ غرضي في هذا الكلام ابتدأته، والأساس الذي وضعته أتوصّل إلى بيان أمر المعاني كيف تختلف وتتّفق، ومن أين تجتمع وتتفرق، وأفصّل أجناسها وأنواعها، وأتتبع خاصّها ومشاعها، وأبيّن أحوالها في كرم منصبها من العقل، وتمكنها في نصابه، وقرب رحمها منه، أو بعدها حين تنسب عنه، وكونها كالحليف الجاري مجرى النّسب، أو الزنيم الملصق بالقوم لا يقبلونه ولا يمتعضون له ولا يذبون دونه"[15].

ما يمكن استنتاجه من كلام عبد القاهر الجرجاني، هو الغرض الذي من أجله وضع هذا الكتاب وهو التوصل إلى بيان أمر المعاني؛ أي بيان المعاني كيف تختلف وتتفق، ومن أين تبدأ في الملائمة والانسجام

ومن أين تتنافر وتفترق، مع تتبع كل ما تتّصل به من حالات خاصة وعامة، وكيف تتمكن من العقول، فتجلبها وتسيطر عليها، أو تنفر منها ولا تقبلها.

فالكلام عنده نوعان: نوع ترتاح له النفس وتقبله العقول، وهو في لبّه كالذهب الخالص الذي تختلف عليه الصور، وتتعاقب عليه الصناعات، وكل مرة يزداد حسنه، فهذا التصوير لا يزيده إلا قمة ورفعة من قدره ومكانة، والنوع الثاني مصطنع من أمور غير شريفة، فهي عبارة عن شوائب إذا زالت تلك التصاوير المصطنعة، فلم يبق منها إلا تلك المادة العارية من التصوير، فتسقط قيمتها وتنحط رتبتها، وتصد عنها العقول والقلوب[16].

ومن بين المسائل البلاغية التي تعرض لها الجرجاني في هذا الكتاب الجناس والسجع. فيقول: أمّا "التجنيس" فإنك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعا حميدا، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيدا، أتراك استضعفت تجنيس أبي تمام في قوله:

ذهبتْ بِمُذْهَبِهِ السَّم راحة فالْتَوَتْ *** فيه الظّنونُ أمَذْهبٌ أم مُذْهَب

واستحسنت تجنيس القائل: "حتى نجا من خوفه وما نجا"

يقول المحدث:

ناظراه فيما جنى ناظراه *** أو دعاني بما أودعاني

لأمر يرجع إلى اللفظ؟ أم لأنك رأيت الفائدة ضعفت في الأول وقويت في الثاني؟ ورأيتك لم يزدك "على بمَذْهَبْ ومُذْهَب" على أن أسمعك حروفا مكررة، تروم لها فائدة فلا تجدها إلّا مجهولةً منكرةً، ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها، ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفّاها، فبهذه السريرة صار "التجنيس" وخصوصًا المستوفى المتفق في الصورة من حلى والشعر، ومذكورًا في أقسام البديع.

فقد تبين لك أن ما يعطي "التجنيس" من الفضيلة أمر لم يتم إلّا بنُصره المعنى، إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه إلا مستحسن، ولما وجد فيه معيب مستهجن، ولذلك ذم الاستكثار منه والولوع به"[17].

نستنتج من كلام الجرجاني أن جمال التجنيس (الجناس) وحسنه وفائدته تعود إلى المعنى، وما يحدثه في نفس المتلقي من أثر، وخاصة المستوفى منه مع نفيه أن يكون حسنه راجع إلى اللفظ وحده، وتكرار الحروف، وجرسها الموسيقي فالاستحسان يعود بالدرجة الأولى إلى المعنى مع ذمه للاستكثار من التجنيس والولوع به.

كما تعرض أيضًا إلى المجاز وقسمه إلى لغوي وعقلي، واللغوي إلى الاستعارة وغيرها، وأن المجاز في الجملة عقلي؛ أي أن الجملة إذا وصفت بالمجاز كانت مجازا عقليا ونراه حين يعرض للمجاز العقلي يشرح ذلك شرحًا مستفيضًا مع التفصيل والتبيين، وفي ذلك يقول: "واعلم أن المجاز على ضربين مجاز من طريق اللغة، ومجاز من طريق المعنى والمعقول، فإذا وصفنا بالمجاز الكلمة المفردة كقولنا:" اليد مجاز في النعمة" و"الأسد مجاز في الإنسان، وكل ما ليس بالسبع المعروف" كان حكم أجريناه على ما جرى عليه من طريق اللغة، لأن أردنا أن المتكلم قد جاز باللفظة أصلها الذي وقعت له ابتداء في اللغة، وأوقعها على غير ذلك، إما تشبيه وإما لصلة وملابسة بين ما نقلها إليه، وما نقلها عنه.

ويختتم عبد القاهر الجرجاني هذا الكتاب القيم بالحديث عن مجاز الحذف والزيادة، ويطرح سؤالا هو: الحذف والزيادة، هل هما من المجاز أم لا؟ ويقرّ أن هذا المجاز هو "ما لا يجري فيه نقل الكلمة عن معناها الأصلي إلى معنى جديد، وإنّما يجري فيه تغير الحكم الإعرابي بسبب ما يدخله من الحذف"[18].

وفي ذلك يقول الجرجاني: "واعلم أنّ الكلمة كما توصف بالمجاز، لنقلك لها عن معناها، فقد توصف به لنقلها عن حكم كان لها، إلى حكم ليس هو بحقيقة فيها ومثال ذلك: أنّ المضاف إليه يكتسي إعراب المضاف في نحو قوله تعالى: ﴿وَسْئَلِ القَرْيَةَ الّتِي كُنَّا فِيهَا﴾[19]، والأصل: (وسئل أهل القرية) فالحكم الذي يجب للقرية في الأصل هو الجرُّ، والنصب فيها مجازٌ"[20].

نستنتج من خلال المثال الذي قدّمه الجرجاني في الآية الكريمة، أن الأصل في لفظة القرية هو الجر باعتبار الأصل الذي هو الإضافة؛ لأن الأصل أهل القرية وهذا هو المقصود بالمجاز الذي يجري فيه تغير الحكم الإعرابي.

وفي هذا المثال مجاز مرسل علاقته المحلية والتقدير (وسئل أهل القرية)؛ لأن القرية مكان لا يعقل أن يسأل، وإنّما يسأل أهله القاطنون به.

هذا وما ذكرته هنا عن بعض ما جاء في كتاب أسرار البلاغة قطرة من بحر، فيه تفصيل وشرح وإيضاح وتمثيل كثير، لا أستطيع حصره؛ نظرا لما تقتضيه هذه الدراسة، وطبيعة المقال، وإنّما أردت أن أقدم بقدر الإمكان بعض الأسس والمسائل البلاغية المهمة في هذا الكتاب.

– دلائل الإعجاز:

يعدّ كتاب دلائل الإعجاز الأثر الثاني الذي خلفه عبد القاهر الجرجاني، وهو أثر نفيس بالغ التأثير في ميدان الدراسات البلاغية، غرف منه من جاء بعده من علماء البلاغة، "كالزمخشري" و"فخر الدين الرازي" و"السكاكي" و"الخطيب القزويني" وغيرهم، وواضح من خلال عنوان الكتاب أن الجرجاني إنما استهدف في هذا المؤلف، البحث في الدلائل والخصائص الموضوعية التي تكشف عن الإعجاز القرآني، ويرى الجرجاني أن مردّ الإعجاز ليس في معانيه فحسب؛ لأنّ المعاني لا تتصور من غير الألفاظ، وإنّما السبيل الذي يمكن به فهم الإعجاز، هو فكرة النظم التي يمكن أن تشيع لكل ما سبق، وهي تقوم على تعلق الكلم بعضه ببعض، ومن خلال إدراك هذه العلاقات تنكشف المعاني الإضافية فضلا عن المعنى الأصلي"[21].

ومن هنا فقد قرّر عبد القاهر الجرجاني في نفسه أن القرآن الكريم معجز، فهو معجز لكلام العرب الذين اشتهروا بالبلاغة والفصاحة، ومن هذا المنطلق حاول أن يستكشف فيه مواطن الإعجاز، أهو في الألفاظ؟ فرد هذا القول ردا حاسما؛ لأنّ الألفاظ مستعملة حتى قبل نزول الوحي، وقد استعملت في العصر الجاهلي، لكنها لم تبلغ ما بلغه القرآن الكريم لفظا، ومعنى هذا الإعجاز الذي ظهر وأعجز العرب أنفسهم، ولا يجوز أن يكون الإعجاز في ترتيب الحركات والسكنات، ولا يتحقق الإعجاز بالفواصل (الحرف الأخير أو الكلمة الأخيرة من الآية)؛ لأن الفواصل في الآي كالقوافي في الشعر، وذلك أمر كان العرب قد أتقنوه فلم يعد معجزا لهم، فإذا بطل أن يكون الإعجاز متأتيا من هذه الأمور، فهل الإعجاز آت من الاستعارة؟ ذلك أيضا ممتنع وإذا كانت كل هذه الأمور مجتمعة أو منفردة لا تحقق الإعجاز، فلم يبق إلا أن يكون "الإعجاز" في النظم والتأليف[22].

وعلى هذا الأساس نستنتج أن الجرجاني ركّز في كتابه هذا على أن الإعجاز يقوم على نظرية النظم.

وللإشارة هنا فإن الجرجاني لم يكن أول من تطرق لهذه النظرية، فقد سبقه إلى ذلك الجاحظ، والقاضي عبد الجبار، ولقد استفاد منهما في هذه النظرية، فكيف يرى الجرجاني النظم؟ وما هو أساسه؟ وكيف يبنى؟

وللإجابة على ذلك نورد قول الجرجاني حيث يقول: "وأمّا نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك؛ لأنك تقتضي في نظمها آثار المعاني وترتبها على حسب ترتيب المعاني في النفس، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه من بعض، وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق"[23]

نستنتج من خلال قول الجرجاني، أنه يركّز في هذه النظرية على الناظم الذي ينبغي عليه أولا أن يبدأ بترتيب المعاني في نفسه، وذلك يتطلب منه مجهودا عظيما وشاقا إذ يقتضي آثار المعاني جيدا، ويتمكن منها في نفسه، ثم ينتقل إلى الألفاظ التي هي وسيلة لترتيب هذه المعاني، فيرتبها وفق ترتيبه للمعاني في نفسه؛ أي انسجام واتساق الألفاظ وفق المعاني وهذا ما يسمى تصاقب اللفظ لتصاقب المعنى.

ومما تقدّم نحاول رصد أبرز الأبعاد الدلالية لنظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني في هذا الكتاب ومنها: "وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ"، فتجلى لك منها الإعجاز، وبهرك الذي ترى وتسمع، أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة، إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة؟ وهكذا إلى أن تستقر بها إلى آخرها، وأن الفضل تناتج ما بينها وحصل من مجموعها، إن شككت فتأمل، هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت لأدّت من الفصاحة ما تؤديه وهي مكانها من الآية؟ قل (ابلعي) واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها، و كذا تعتبر سائر ما يليها، وكيف بالشك في ذلك ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض ثم في أن كان النداء و(بيا) دون (أي) نحو: يا أيتها الأرض، ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال: ابلعي الماء، ثم أن أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو شأنها نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصّص ثم أن قيل: (وغيض الماء) فجاء على صيغة (فُعِلَ) الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آخر، وقدرة قادر، ثم تأكيد ذلك وتقريرها بقوله تعالى: وقضي الأمر "ثم ذكر فائدة هذه الأمور وهو:

(واستوت على الجوديّ)، ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن ثم مقابلة:(قيل) في الخاتمة (بقيل) في الفاتحة.

أفترى الشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعة، وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلقا باللفظ من حيث هو صوت مسموع، وحروف تتوالى في النطق، أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب؟"[24].

لنلاحظ مليًا كيف برهن وأثبت وأبرز الجرجاني فضل النظم في الإعجاز الموجود في الآية القرآنية، وذلك لارتباط وتماسك واتساق معنى الآية الكريمة مع انسجام وارتباط وتلاؤم ألفاظها وحروفها مع معانيها.

ثم يتعرض بعد ذلك للمجاز والاستعارة والتشبيه والتمثيل: "فيذكر أن لها فضلا ومزيّة ويكشف عن ذلك ويجلّيه أتم التجلية، ثم بين أن المزية والحسن والفصاحة والرونق لا يرجع إلى ذات هذه الفنون، بل إلى نظمها الذي سبقت فيه"[25] وعن ذلك يقول الجرجاني: "ترى المزيّة أبدى في ذلك تقع في طريق إثبات المعنى نفسه، فإذا سمعتهم يقولون: إن من شأن هذه الأجناس أن تكسب المعاني نبلا وفضلا، وتوجب لها شرفا، وأن تفخمها في نفوس السامعين، وترفع مقدارها عند المخاطبين، فإنهم لا يريدون الشجاعة والقرى وأشباه ذلك من معاني الكلم المفردة، وإنما يعنون إثبات معاني هذه الكلم لمن تثبت له ويخبر بها عنه، هذا ما:

- **لا قيمة للكلمة المفردة خارج السياق:**

لقد أسلفت الذكر أن عبد القاهر الجرجاني أكّد أن نظرية النظم تقوم أولا على ترتيب المعاني في نفس الناظم، ثم يعقب ذلك ترتيب الألفاظ واختيارها بما يتلاءم مع ترتيب تلك المعاني، ومن هنا فهو يرى أن اللفظ المفردة تكتسب قيمتها البلاغية من السياق الذي تستخدم فيه، ومن تناسبها مع ما يجاورها من ألفاظ، وذلك أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجرّدة، ولا من حيث هي كلم مفرد، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك، وتوحشك في موضع آخر[26]، ثم نجده يقول في موضع آخر» وجملة الأمر أنا لا نوجب الفصاحة للفظة مقطوعة مرفوعة من الكلام الذي هي فيه، ولكن نوجبها لها موصولة بغيرها، ومعلقا معناها بمعنى ما يليها"[27].

نفهم من كلام الجرجاني أنه جعل الكلمة المفردة لا قيمة لها بمعزل عن تناسبها وتلاؤمها وانسجامها مع جاراتها من الكلام؛ أي انتقاء وتخير الكلمات بما يتناسب وينسجم مع بعضها البعض، وهذا كله مرتبط بتلاؤم المعنى وترتيبه، زيادة على تناسب اللفظة المفردة مع سياقها الدلالي الذي وضعت له، وهذان الشرطان هما من يمنحانها الفضل والتميز عن غيرها من الألفاظ المتناثرة التي تحدث النشاز لدى المتلقي حين سماعه لما يكتبه الناظم.

ويواصل الجرجاني في إبراز أهمية النظم في الكلام، وتقرير أنه عماد وأساس الفصاحة حيث يقول في هذا الشأن: "وهل تجد أحدا يقول: هذه اللفظة فصيحة، إلا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملائمة معناها لمعنى جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها؟ وهل قالوا: لفظة متمكنة ومقبولة، وفي خلافه قلقة ونابية ومستكرهة؟ إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناها، ولأن السابقة لا تصلح أن تكون لفقا للتالية في مؤداها"[28].

وكعادة الجرجاني يتبع ذلك بمجموعة من الشواهد والأمثلة لإثبات صحة ما يذهب إليه فيبدأ بقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[29] ثم يلي ذلك بإبراز ما في الآية الكريمة السالفة الذكر من إعجاز، مبيّنا أن مرد ذلك إنما يعود بالدرجة الأولى إلى النظم فيقول: "هل تشك إذا فكرت للعاقل أن يجعله على ذكر منه أبدا، وأن يعلم أن ليس لنا إذا نحن تكلمنا في البلاغة و الفصاحة مع معاني الكلم المفردة شغل، ولا هي منا بسبيل، وإنما نعمد إلى الأحكام التي تحدث بالتأليف والتركيب"[30].

ومن هنا نستنتج أن الجرجاني ألغى أن تكون المزية والفضل في تأثير هذه الأجناس في نفوس السامعين، ورفع أقدارها عند المخاطبين راجعة إلى الألفاظ المجردة، ولا إلى المعاني اللغوية للكلمات، إنما ترجع إلى النظم والتآلف والتأليف والتركيب المحكم.

ومن هنا يمكن لنا أن نرصد البعد الدلالي الثاني لنظرية النظم وهو:

– النظم هو مراعاة قواعد النحو وأحكامه:

وعن ذلك يقول الجرجاني: "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك: فلا تخل بشيء منها"[31].

ومن هنا نستنتج أن الجرجاني جعل النظم في مراعاة قواعد النحو، ومعرفة أحكامه وأصوله وقوانينه، والعمل بها بما يقتضيه السياق والمقام.

ويواصل كلامه شارحا مراده بعلم النحو وما يقتضيه فيقول: "وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم لنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك: زيدٌ منطلقٌ، وزيدٌ ينطلقُ، وينطلقُ زيدٌ، ومنطلقٌ زيدٌ، وزيدٌ المنطلقُ، والمنطلقُ زيدٌ، وزيدٌ هو المنطلقُ"[32].

إن المراد بعلم النحو وقوانينه في نظر الجرجاني، هو أن المبدع ينبغي عليه أن يعي جيدا ويدرك العلاقات بين المفردات والجمل، وما يكمن وراء التعبيرات من دقائق وأسرار، وأن يتصرف بقواعد النحو وفق مقتضى السياق والمقام، وألا يخالف قواعد اللغة من جهة الإعراب، وألا يتصرف في ذلك كيف شاء، بل للّغة قوانينها وضوابطها، فلا يزيغ عنها زيادة على أن يأتي بالأبنية والصيغ على وفق ترتيب المعاني في النفس، فلا يجوز مثلا أن يقول: رُجلٌ في الدارِ ويدعي أن المقام فرض ذلك؛ لأنه لا يجوز الابتداء بنكرة، إلا بشروط معينة ومحدّدة، وإلا سيكون قد أخلّ بنظام اللغة وقوانينها.

"وقد يصلح أسلوب نحوي في موضع ولا يصلح في موضع آخر، التقديم والتأخير— على سبيل المثال— شكل نحوي يفضي إلى جماليات دلالية، ولكن التقديم والتأخير يصلح في موضع ولا يصلح في موضع آخر، والسبب في ذلك أن السياق والمقام هو الذي يستدعي شكلا نحويا دون غيره، فأنت لا تستطيع أن تتكلف أسلوب نحويا بدعوى أن استخدامه يفضي إلى جمال تعبيري، فأي اختيار نحوي لا يحمل بذاته قيمة دلالية، إلا إذا استدعاه معنى السياق"[33]، فالسياق والموضع هو الذي يستدعي هذا الاستعمال، وإلا فقد أصبح لا معنى له، وفي هذا يقول الجرجاني: "ليس من فضل ومزية إلا بحسب الموضع، وبحسب المعنى الذي تريد، والغرض الذي تؤم"[34].

فإذا أردت مثلا الاهتمام بالفاعل قدمته وقلت: محمدٌ جاءَ، وإذا أردت الاهتمام بالحدث(الفعل) قلت: جاءَ محمدٌ، وإذا أردت الاستفهام عن مجيء محمد قلت: أَجاءَ محمدٌ؟ وإذا أردت أن يكون محمد قد جاء أم لا، قلت: أ محمد جاء؟ وما إلى ذلك.

ثم إنه لا يخفى علينا أن الجمل ترتبط بأدوات الربط؛ لتحقيق الاتساق والانسجام في النص، شعريا كان أم نثريًا، وذلك نحو حروف العطف والجر ولكن ينبغي على الناظم ألا يكتفي بمجرد معرفة هذه الأدوات بل بكيفية استعمالها وتوظيفها، وكيف نوظف أداة ربط في تعبير معين ولا نوظف غيرها نحو:

توظيف حرف الجر (في) التي تفيد الظرفية الزمنية والمكانية دون غيرها في قولنا: يجب عليك الحضور في الساعة الثامنة صباحًا، ولا نوظف (على) لأنها تفيد الاستعلاء مثلاً، إلا إذا كان المقام يتطلب ذلك، ومن الأمثلة في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿قَالَ آَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آَذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُم الَّذِي عَلَّمَكُم السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾[35] فقد استعمل عز وجل(في) التي تفيد الظرفية المكانية بدلا من (على)؛ لأنها تفيد الاستعلاء، وذلك لأن السياق الدلالي للآية تطلب استخدام الحرف(في) دون غيرها؛ ليبين الله تعالى شدة غضب فرعون من السحرة حين سجدوا لسيدنا موسى عليه السلام دون أن يستأذنوا فرعون أو ينتظروا منه ذلك، وكأنما فرعون أراد أن يقول: لأفتحنّ جذوع النخل، وأدخلكم بداخلها والله أعلم. وعن ذلك يقول الإمام الجليل إسماعيل بن كثير في تفسيره لهذه الآية: "يقول تعالى مخبرًا عن كفر فرعون وعناده وبغيه ومكابرته الحق بالباطل، حين رأى ما رأى من المعجزة الباهرة، والآية العظيمة، ورأى الذين قد استنصر بهم قد آمنوا بحضرة الناس كلهم وغلب كل الغلب، شرع في المكابرة والبهت وعدل إلى استعمال جاهه وسلطانه في السحرة، فتهدّدهم وتوعّدهم وقال:(آمنتم له)؛ أي صدقتموه قبل (أن آذن لكم)؛ أي وما أمرتكم بذلك وافتتنتم على ذلك... ثم أخذ يتهدّدهم فقال : "(لَأُقَطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل)؛ أي لأجعلنكم مثله ولأقتلنّكم ولأشهرنكم، قال ابن عباس فكان أول من فعل ذلك، رواه ابن أبي حاتم"[36].

قال سليمان بن عمر العجيلي: قوله تعالى: ﴿قَالَ آَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آَذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُم الَّذِي عَلَّمَكُم السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾[37] يحتمل أن يكون حقيقة، وفي التفسير أنه نقر جذوع النخل حتى جوفها ووضعهم فيها فماتوا جوعا وعطشا، ويحتمل أن يكون مجاز وله وجهان: أحدهما: أنه وضع حرف مكان آخر، والأصل على جذوع النخل، والثاني: أنه شبه تمكنهم بتمكن من حواه الجذع واشتمل عليه.

وعبارة الكرخي قوله: أي عليها أشار به إلى أن في الظرفية بمعنى على مجاز من حيث شبه تمكن المصلوب بالجذع بتمكن المظروف في الظرف وهو المشهور"[38].

وفي هذا السياق يقول الجرجاني: "فليس الفضل للعلم بأن الواو للجمع، والفاء للتعقيب بغير تراخٍ، وثم له بشرط التراخي ... و(إن) لكذا و(إذا) لكذا لكن لأن يتأتى لك إذا نظمت شعرًا وألّفت رسالة أن تحسن التخير وأن تعرف لكل من ذلك موضعه"[39].

ومن هنا فمعرفة السياق الدلالي حق المعرفة لدى الناظم، هي التي تستوجب توظيف هذا الحرف في الموضع كذا دون غيره، ونفس الشيء بالنسبة للأفعال والأسماء، والأساليب والأبنية والصيغ وحتى الأنماط النصية.

– جمال التعبير لا يظهر من الجزء بل يقتضي النظر في الكل:

فلقد أشار الجرجاني إلى ذلك حيث قال: "اعلم أن ممّا هو أصل في أن يدُقَّ النظر، ويغمض المسلك في توخي المعاني التي عرفت أن تتحد أجزاء الكلام، ويدخل بعضها في بعض، ويشد ارتباط ثانٍ منها بأول، وأن يحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعًا واحدًا"[40].

ويقول في موضع آخر: "واعلم أنك لا تشفي الغلة، ولا تنتهي إلى ثلج اليقين حتى تتجاوز حد العلم بالشيء مجملا إلى العلم به مفصلا، وحتى لا يقنعك إلّا النظر في زواياه والتغلغل في مكامنه، وحتى تكون كمن تتبع الماء فعرف منبعه[41]".

نفهم من خلال هذين القولين للجرجاني أن ما يأثّر في أنفسنا من جمال في بيت أو أبيات، في قصيدة ما أو صورة بيانية، أو أسلوب لغوي أو عبارة لناظم ما، لا تكتمل أبعاده الدلالية والجمالية والفنية، ولا تظهر خفاياه البعيدة، إلا بعد تأمل النص مجملا وموحدا؛ أي إلا بعد الصورة الكلية المتكاملة للنص.

– حسن الفهم مرتبط بحسن الصياغة:

قد نقرأ نصا لشاعر أو نثرا لكننا لا نفهم منه الكثير، فنعدل عن ذلك، إمّا من التعقيد في اللفظ والمعنى، أو لسوء الصياغة، لكن إذا كان الناظم يحسن استعمال اللفظ والصياغة، سهل وصول المعنى إلى الفهم سريعا، فنجد أنفسنا مشدودين إلى ذلك النص شدّا، ومقبلين على قراءته مرات ومرات لحلاوته وعذوبته، وفي هذا السياق يقول الجرجاني: "إذا كان النظم سويا، والتأليف مستقيما، كان وصول المعنى إلى قلبك تلو وصول اللفظ إلى سمعك، وإذا كان على خلاف ما ينبغي وصل اللفظ إلى السمع، وبقيت في المعنى تطلبه وتتعب فيه، وإذا أفرط الأمر في ذلك وصل التعقيد الذي قالوا: أنه يستهلك المعنى"[42].

– نظرية النظم والمتلقي:

ثم ينتقل الجرجاني إلى علاقة النظم بالمتلقي (السامع أو القارئ) الذي ينبغي أن يصل على مرتبة معينة وناضجة من الفهم والاستيعاب، "فإذا كان الكلام المنطوق أو المكتوب مستوفيا لشروط البلاغة

والفصاحة، ولا يحقق تأثير أو إثارة لدى المستمع أو القارئ ، إذ ينبغي أن يرتقي المتلقي إلى مستوى الكلام المسموع أو النص المكتوب، وأن يكون من أهل الذوق والمعرفة"[43]، وفي هذا السياق يقول الجرجاني: "واعلم أنه لا يصادف القول في هذا الباب(النظم) موقعا من السامع، ولا يجد لديه قبولا، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة.. حتى إذا عجّبته عجب، وإذ نبّهته لموضع المزية انتبه، فأما من كانت الحالان والوجهان عنده أبدًا سواء، وكان لا يفقه من أمر النظم إلا الصحة المطلقة، ولا إعرابا ظاهرًا فما أقلّ ممّا يجدي الكلام معه"[44].

ومما تجدر الإشارة إليه، أن الجرجاني حين جعل لمعاني التشبيه والاستعارة والتمثيل والكناية وغيرها من فنون البلاغة حسنا ومزية، وأن جمالها ورونقها ومزيتها إنما يتم وفق النظم، "لم يهمل التنبيه إلى ما للألفاظ وحذاقة حروفها وسلامتها مما يثقل على اللسان من حسن يوجب لها الفضيلة والمزية، ولكن الذي أنكره وكرّر إنكاره في مواضع كثيرة من كتابه، أن يكون لهذه المعاني وما يثبت لها من حسن أو لتلك الألفاظ وما وجب لها من مزية، أساس في تحقيق الإعجاز، ومهما يكن من أمر فإن الإعجاز يتأكد بمثل هذه الأمور ولا يكون بها وحدها"[45].

ويتضح ذلك من خلال أقواله: "وجملة الأمر أنّ ههنا كلاما حسنه للفظ دون النظم، وآخر حسنه للنظم دون اللفظ، وثالثها قوي الحسن من الجهتين ووجبت له المزية بكلا الأمرين، والإشكال في هذا الثالث وهو الذي لا تزال ترى الغلط قد عارضك فيه، وتراك قد عفت فيه على النظم فتركته، وطمحت ببصرك إلى اللفظ، وقدرت في حسن كان به وباللفظ أنه للفظ خاصة، وهذا هو الذي أردت حين قلت لك: إن في الاستعارة ما لا يمكن بيانه إلا من بعد العلم بالنظم والوقوف على حقيقته"[46].

ويقول في موضع آخر: "اعلم أن الكلام الفصيح ينقسم إلى قسمين: قسم تعزى المزية والحسن فيه إلى اللفظ، وقسم يعزى ذلك فيه إلى النظم"[47].

وقد أشرت سابقا أن الجرجاني قد أفاد من حديث العلماء الذين سبقوه حول هذه النظرية وبخاصة الجاحظ، حين تحدث عن اللفظ والمعنى، وابن رشيق القيرواني وحديثه عن تلازم اللفظ والمعنى ووجوب الحسن لأحدهما إذا ثبت للآخر، لكن الجرجاني أبرز هذه النظرية في كتابه دلائل الإعجاز فلقد شرح وحلّل واستشهد وفصّل وأكثر من الأمثلة؛ لترسيخ نظرية النظم في أذهان الدارسين، ولذلك نجد السكّاكي

قد استفاد كثيرًا من هذه النظرية مستمدًا مباحث علم المعاني من تلك الأسس التي أرساها الجرجاني، وبنى عليها نظرية النظم، وتبعه في ذلك البلاغيون.

إن محصلة الربط بين ما جاء في أثر عبد القاهر الجرجاني (الأسرار والدلائل) من أسس ومسائل بلاغية هو ذلك الزاد المعرفي الهائل والتحليل المنطقي والشرح المستفيض والتفصيل الدقيق، إنهما فعلا أثرين بالغي الأهمية لكل دارس أراد أن يطرق هذا العلم الذي ارتبط أساسا بفهم معاني وأسرار القرآن الكريم، فلقد أسّسا وأرسيا قواعد وأصول النظر في علم بلاغة اللسان العربي المبين.

وقد عرض الأستاذ أحمد المراغي في كتابه "بحوث وأراء في البلاغة" لعبد القاهر الجرجاني فذكر أثره في بناء البلاغة العربية وقال: "وفي الحق أن كتابيه يعدان أول المؤلفات العلمية في هذه الفنون، بما اشتملا عليه من التحقيق العلمي للمسائل التي تناولها في عرض كلامه، وبما سلك فيهما من نهج أدبي مقرون بتدقيق منطقي بديع، فلا غرْوَ أن قيل أنّ أول من وضع هذه الفنون عبد القاهر الجرجاني، كما أن من الحق أن نقول أيضا: أن عبد القاهر بوضعه هذين الكتابين أوجد علوم البلاغة كاملة فكل من جاء قبس من نور علمه، وما لم يتعرض له من مسائلها وزادوه فيها بعده، فهو قشور، لا يضير الأديب"[48].

وقد ذكر السيد يحي بن حمزة الحسيني صاحب كتاب (الطراز في علوم حقائق الإعجاز) ما نصه "وأول من أسس من هذا الفن قواعده وأوضح براهينه، وأظهر فوائده ورتب أفانيه، الشيخ العالم الخيّر علم المحققين عبد القاهر الجرجاني، فلقد فكّ قيد الغرائب بالتقييد، وهو من صور المشكلات بالتصوير المشيد، وفتح أزاهيره من أكمامها، وفتق أزراره بعد استغلاقها واستبهامها، فجزاه الله عن الإسلام أفضل الجزاء"[49].

إنّ الحديث عن كتاب دلائل الإعجاز، وما ورد فيه من مسائل وموضوعات البلاغة لا يمكن حصره؛ نظرا لطبيعة هذا المقال، إنّما أخذت هذا الأنموذج عن رأي الجرجاني في نظرية النظم لأبين قيمته العلمية في هذا المجال، فهو في صميم الحديث عن البلاغة وعلومها.

وللإشارة هنا فإنّنا نقرّ بأنّ البلاغة العربية أصبحت علما قائما بذاته، له أسسه الواضحة التي غرف منها علماء البلاغة من بعد الجرجاني أمثال أبي يعقوب السكاكي والخطيب القزويني، وتمّ تقسيمها إلى علومها الثلاثة: المعاني والبيان والبديع، ولكلّ علم منها فروع وتقسيمات.

ولقد جعل الإمام عبد القاهر الجرجاني الباب مفتوحا وممهدا للعلماء من بعده من أمثال السكاكي والقزويني.

خاتمة:

لقد قدّم العلماء والبلاغيون العرب القدماء مجهودات جبّارة في مجال الدّرس البلاغي، وأسهموا إسهامات كبيرة في هذا المجال، وألخّص أهم النتائج التي توصّلت إليها في هذه المقال فيما يأتي:

- إنّ عملية البحث في الدرس البلاغي، هي عملية مضنية وشاقة، وفي غاية الحساسية والدقة، فهي تحتاج إلى اطلاع واسع بعلم البلاغة منذ نشأته الأولى؛ لأنه مرتبط أصلا بالقرآن الكريم وإعجازه في كل ما يحتويه من أصوات وحروف وألفاظ ومعان ورسم عثماني وغيرها.

- إن البلاغة هي فنّ الذّوق الرّفيع والجمال.

- إنّ مشكلة البحث والتقصي في البلاغة العربية، بغية الوصول من خلالها إلى معرفة إعجاز القرآن الكريم عمل شاق ومضني؛ يتطلّب من صاحبه علما غزيرا بالعربية وخباياها وأسرارها.

- لقد قدم الإمام عبد القاهر الجرجاني جهودا جبارة في علم البلاغة العربية وأرسى أسسها وعلومها، مستفيدا ممن سبقه من العلماء والبلاغيين وممهدا الطريق لمن جاؤوا من بعده أمثال السكاكي والقزويني والعلوي وغيرهم.

- إنّ اللّجوء إلى التيسير والتبسيط في البلاغة العربية، أمر إجرائي تنبه له القدماء من أمثال: عبد القاهر الجرجاني، وأبو يعقوب السكاكي، والخطيب القزويني ويحي بن حمزة العلوي اليمني وغيرهما، قبل المحدثين والمعاصرين.

ـ إنّ الاختلاف في وجهات النظر بالنسبة لتجديد أو تيسير أو تسهيل الدرس البلاغي لدى البلاغين العرب القدماء، ينم عن مدى أهمية هذا العلم في تراثنا اللغوي، لاسيما عند السكاكي وبعده الخطيب القزويني اللّذان لجآ ـ فيما نرى ـ إلى مسألة التيسير ووضع الضوابط، وعلمنة الدرس البلاغي؛ حتى يسهل على المبتدئين والمتعلّمين تحصيل هذا العلم.

الهوامش والإحالات:

[1]سورة البقرة، الآية 234.

[2] ابن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، م1، ط6، 2008، ص143– 144.

[3] أبو عثمان بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تح، عبد السلام هارون، مؤسسة الخانجي، القاهرة، مصر، ج1، ط3، ص115–116.

[4] أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمان بن محمد الجرجاني، دلائل الإعجاز، قرأه وعلّق عليه، محمود محمد شاكر، (د ط)، (د ت)، دار المدني، جدّة، ص43.

[5] محمد أحمد قاسم، محي الدين ديب، علوم البلاغة (البديع والبيان والمعاني)، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، (د ط)، 2008، ص10.

[6] محمد عبد المنعم خفاجي، عبد العزيز شرف، البلاغة العربية بين التقليد والتجديد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1992، ص3.

[7] محمد عبد المنعم خفاجي، عبد العزيز شرف، البلاغة العربية بين التقليد والتجديد، ص3.

[8]المرجع نفسه، ص 34.

[9]عمر عبد الهادي عتيق، علم البلاغة بين الأصالة والمعاصرة، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2012، ص18.

[10] ينظر، بدوي طبانة، البيان العربي –دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة–، مكتبة الأنجلو المصرية، ط2، 1958، ص18–19.

[11]د/ سعد سليمان حمودة، البلاغة العربية، مرجع سابق، ص16.

[12]د/ بسيوني عبد الفتاح فيود، علم البديع، مرجع سابق، ص 93.

[13]ينظر، د/ أحمد موسى، الصيغ البديعي في اللغة العربية، دار الكتاب العربي، القاهرة، مصر، ط1، 1969، ص235.

[14] ينظر، د/ بسيوني عبد الفتاح فيود، علم البديع، مرجع سابق، ص93.

[15]أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمان بن محمد الجرجاني النحوي، أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، دار المدني، جدّة، السعودية، ط1، 1991، ص26.

[16]ينظر، عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص26–27.

[17]عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص7–8.

[18]د/ بسيوني عبد الفتاح فيود، علم البديع، مرجع سابق، ص112.

[19]سورة يوسف، الآية ،82.

[20] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص416.

[21] أد/يوسف أبو العدوس، مدخل إلى البلاغة العربية، مرجع سابق، ص36.

[22]ينظر، د/إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، مرجع سابق، ص420.

[23] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، صحح أصله، الشيخ محمد عبده، والشيخ محمد محمود الشنقيطي، علق عليه، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 1988، ص49.

[24] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص45ـ 46

[25] د/ بسيوني عبد الفتاح فيود، علم البديع، مرجع سابق، ص97.

[26] ينظر، عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص49.

[27] المصدر نفسه، ص259.

[28] المصدر نفسه، ص49.

[29] سورة هود، الآية 44.

[30] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص63.

[31] المصدر نفسه، ص70.

[32] المصدر نفسه، ص70.

[33] د/عمر عبد الهادي عتيق، علم البلاغة بين الأصالة والتجديد، مرجع سابق، ص47.

[34] الجرجاني، دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص74.

[35] سورة طه، الآية 71.

[36] الإمام إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي(ت747ه)، تفسير القرآن العظيم، دار الغد العربي، القاهرة، مصر، ج3، ص163.

[37] سورة طه، الآية 71.

[38] سليمان بن عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجمل، الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية –م3، دار الفكر بيروت، لبنان،1994، ص87.

[39] الجرجاني، دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص169.

[40] المصدر نفسه، ص77–78.

[41] المصدر نفسه، ص175.

[42] الجرجاني، دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص، 183.

[43] د/عمر عبد الهادي عتيق، علم البلاغة بين الأصالة والمعاصرة، مرجع سابق، ص49.

[44] دلائل الإعجاز، الجرجاني، مصدر سابق، ص 195.

[45] د/ بسيوني عبد الفتاح فيود، علم البديع، مرجع سابق، ص101.

[46] الجرجاني، دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص99ـ 100.

[47] المصدر نفسه، ص 429.

[48] أ/أحمد المراغي، بحوث وأراء في البلاغة، ص58.

[49] الجرجاني، أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، مقدمة المعلق، ص13.

قائمة المصادر والمراجع:

1- القرآن الكريم.

2- ابن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، م1، ط6، 2008.

3- أبو عثمان بن بحر الجاحظ، تح، عبد السلام هارون، البيان والتبيين، ط3، مؤسسة الخانجي، القاهرة، مصر، ج1.

4- أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمان بن محمد الجرجاني، دلائل الإعجاز، قرأه وعلّق عليه، محمود محمد شاكر، دار المدني، جدّة.

5- محمد أحمد قاسم، محي الدين ديب، علوم البلاغة (البديع والبيان والمعاني)، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، 2008.

6- محمد عبد المنعم خفاجي، عبد العزيز شرف، البلاغة العربية بين التقليد والتجديد، دار الجيل، ط1، بيروت، لبنان، 1992.

7-

8- عمر عبد الهادي عتيق، علم البلاغة بين الأصالة والمعاصرة، دار أسامة للنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن، 2012.

9- البيان العربي –دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة مكتبة الأنجلو المصرية، ط2، بدوي طبانة، 1958.

10- د/ أحمد موسى، الصيغ البديعي في اللغة العربية، دار الكتاب العربي، ط1، القاهرة، مصر، 1969.

11- أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمان بن محمد الجرجاني النحوي، أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، دار المدني، ط1، جدّة، السعودية، 1991.

12-عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، صحح أصله، الشيخ محمد عبده، والشيخ محمد محمود الشنقيطي، علق عليه، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، ط1، بيروت، لبنان، 1988.

13-الإمام إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي(ت747هـ)، تفسير القرآن العظيم، ج3، دار الغد العربي، القاهرة، مصر.

14-سليمان بن عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجمل، الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية–م3، دار الفكر بيروت، لبنان، 1994.